مریم البتول و ابنہا عیسیٰ علیہ السلام
عبد اللہ و کلمتہ

(الآیات ۴۲ - ۶۳)

﴿٤٢﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ

اصطفاك : اختارك واجتباك لطاعته وما خصّك به من كرامته[1] .

نستطيع أن نفهم أنّ القول « وإذ » معطوفٌ على قوله تعالى: « إذ قالتِ امرأة عمران » والمعنى اذكر إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّي نذرت لك ما فى بطنى محرّراً فتقبّل منّى إنّك أنت السّميع العليم ، واذكر إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين. إنّ الله سبحانه وتعالى سميع لكلا القولين عليمٌ به .

والآية الكريمة تبيّن أنّ الملائكة قد قالت لمريم البتول بأمر الله تعالى ، ويعتبر جبريل عليه السّلام زعيم الملائكة المرسلين إلى البشر : يا مريم ، يا من تقبّلك الله تعالى بقبولٍ حسنٍ وأنبتك نباتاً حسناً ، اعلمي أنّ الله سبحانه وتعالى قد اختارك واجتباك بسبب إقبالك الكلّيّ عليه جلّ وعلا وانقطاعك لعبادته وانصرافك عن شئون الدّنيا ، وخصّك كفاء خصالك الذّاتيّة المَرْضِيّة أن طهّرك من أدنى شائبةٍ ونقيصة ، يمكن أن تخدش أيّ عذراء ، وزادك إلى الاصطفاء الأوّلي بسبب خصائصك الذّاتيّة اصطفاءً آخر بالقياس إلى نساء عالمى زمانك . فأنت بينهنّ المصطفاة المنتقاة ، لإخلاصك وتفانيك فى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له ، وأنت واسطة العقد المختارة المجتباة على نساء العالمين الّتى تقبّلك الله بقبول حسن وأنبتك نباتاً حسناً ، وطهّرك من كلّ رجس ، ونقّى معتقدك من كلّ شائبة . وكأنّ ثمّة معنى بعيداً ترمى إليه الآية الكريمة من الاصطفاء مرّتين اثنتين ، وكأنّ المراد القول : إنّك أنت الأهل لأن تكونى والدة عيسى ابن مريم عليه السّلام الّذى شاءت العناية الإلهيّة أن توجده آنذاك وأن تخلقه من غير أب ومن الأمّ المصطفاة على نساء العالمين . جاء فى الصّحيحين عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد[2] والمراد خير نساء أهل الجنّة[3] وتفرّد

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٧٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٢ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٨٠ .

التّرمذى بهذا الحديث الّذى صحّحه عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال : حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمّد وآسية امرأة فرعون[1] وأخرج الجماعة إلاّ أبا داود عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : كمل من الرّجال كثير ، ولم يكمل من النّساء إلاّ مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون[2] ولفظ البخاريّ : كمل من الرّجال كثير ولم يكمل من النّساء إلاّ آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران . وإنّ فضل عائشة على النّساء كفضل الثّر يد على سائر الطّعام[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٢ .

﴿٤٣﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ

القنوت : الطّاعة فى خشوع كما قال تعالى : « وله من فى السّماوات والأرض كلٌّ قانتون »[1] .

بعد أن بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى قد اصطفى مريم البتول طهّرها واصطفاها على نساء العالمين ، وفى ذلك من فضل الله تعالى عليها ومن رفيع منزلة ما فيه ، بيّنت هذه الآية الكريمة التّالية أنّ من شروط الحفاظ على المنزلة الرّفيعة عند الباريء جلّ وعلا ، واستمرار ارتفاع المنزلة بعون الله تعالى وفضله ، أن يجتهد العبد فى عبادة الله تعالى وابتغاء مرضاته ، فليس جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ، وإنّ لنا فى المصطفى ﷺ ، وهو الّذى غفر الله تعالى له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، لأسوةً حسنة . فقد كان عليه الصّلاة والسّلام يصلّى حتّى تتورّم قدماه ، وحينما فوتح فى ذلك قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ وإنّ الآية الكريمة هنا لتلقى علينا هذا الدّرس ، وها هي ذى مريم البتول تأمرها الملائكة بإذن ربّها بأن تخلص العبادة لله تعالى وأن تصلّي لله تعالى بتطيعه جلّ وعلا فى خشوع وخضوع ، وأن تسجد لله تعالى ، وقد عرفنا فى الإسلام أنّ العبد أقرب ما يكون إلى الله تعالى وهو ساجد ، وأن تركع مع الرّاكعين المؤدّين الصّلاة فى جماعة . وكأنّ فى الآية الكريمة تنبيهاً إلى فضل صلاة الجماعة وكأنّ الآية الكريمة تطلب من مريم البتول المنعزلة عن النّاس المنفردة فى محرابها لعبادة الله تعالى بأن تكون لصلاة الجماعة حظّ لديها واعتبار .

---

[1] تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٣ والآية الكريمة هي ٢٦ من سورة الرّوم .

﴿٤٤﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ

تبيّن الآية الكريمة أنّ ذلك المذكور من أمر زكريّا ومريم من أخبار الغيب الّتى لم يكن يعلمها المصطفى ﷺ ولا قومه ، بل كان علم الأحبار والرّهبان بها قليلاً لخفائها وخمولها ، وإنّما علمها المصطفى ﷺ بإيحاء الله تعالى القرآن الكريم إلى المصطفى ﷺ فى أسمى طرق الوحي . وتنتقى الآية الكريمة من جملة الأخبار أدقّها وقوامها فتبيّن للنبيّ ﷺ أنّه لم يكن عند زكريّا وأصحابه وقد تنازعوا فى مريم كلٌّ يريد أن يكون الكافل لها القيّم على شئونها ، بل إنّ أصحاب زكريّا عليه السّلام لم يقنعهم سببه الوجيه فى ضمّ مريم إليه باعتباره زوج خالتها أو أختها فأصرّوا على الاقتراع والاستهام بإلقاء أقلامهم الّتى يكتبون بها التّوراة فى نهر الأردنّ فمن ثبت قلمه ولم يجربه الماء كان الكافل لمريم . وشاءت إرادة الله تعالى أن يجري الماء بكل الأقلام باستثناء قلم زكريّا عليه السّلام ، وبذلك أصبح الكافل لمريم ، وبذلك انتهى الخصام الّذى ما علم به المصطفى ﷺ إلاّ عن طريق القرآن الكريم الموحى به إليه . « وإنّما قيل : أيهّم يكفل مريم لأنّ إلقاء المستهمين أقلامهم على مريم إنّما كان لينظروا أيهّم أولى بكفالتها وأحقّ . ففى قوله عزّ وجلّ : إذ يلقون أقلامهم دلالة على محذوفٍ من الكلام وهو : لينظروا أيّهم يكفل وليتبيّنوا ذلك ويعلموه »[1] .

ونستطيع أن نفهم أنّ فى الآية الكريمة تبكيتاً لأهل الكتابين وتأنيباً حينما لا يصدّقون المصطفى ﷺ ولا يؤمنون به رغم كلّ هذه الأدلّة المتضافرة .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٨٤ .

﴿٤٥﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ

إذا لم يكن المصطفى ﷺ هنالك حين يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، ولم يكن هنالك حين يختصمون فى أمر مريم ، وقد كان كلّ ذلك من أنباء الغيب الموحى بها ، فإنّه عليه الصّلاة والسّلام لم يكن هنالك حينما قالت الملائكة لمريم : إنّ الله يبشّرك بكلمة منه . إنّ ذلك من أنباء الغيب كذلك .

إذ : اذكر إذ [1] .

بكلمة منه : أي بولدٍ يكون وجوده بكلمةٍ من الله أي يقول له كن فيكون . وهذا تفسير قوله : مصدّقاً بكلمةٍ من الله . كما ذكره الجمهور [2] ولذلك قال عزّ وجلّ : اسمه المسيح فذكّر ولم يقلّ اسمها فيؤنّث . والكلمة مؤنّثة [3] .

وسمّي المسيح . قال بعض السّلف : لكثرة سياحته . وقيل : لأنّه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما . وقيل : لأنّه كان إذا مسح أحداً من ذوى العاهات برىء بإذن الله تعالى [4] .

وجيهاً : ذا وجهٍ ومنزلةٍ عالية عند الله وشرف وكرامة [5] ووجاهة [6] وجاه [7] ومنه يقال للرّجل الّذى يشرف وتعظّمه الملوك والنّاس وجيه [8] .

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٣ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٨٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٣ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٨٦ .
(٦) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٤ .
(٧) الجلالين .
(٨) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٨٦ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يذكر إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله سبحانه وتعالى أمرنا أن ننقل لك بشارة تسرّ لها نفسك ويبتهج بها فؤادك ويظهر بسببها البشر على ملامحك وبشرتك . وهذه البشارة تتجلّى فى ولدٍ سيهبه الله تعالى لك بكلمةٍ منه جلّ وعلا حينما يقول له كن من غير أب فيكون . واسم هذا الولد لدى المؤمنين عيسى ابن مريم فهو عبد الله ورسوله وليس كما يزعم المغالون فيه عليه الصّلاة والسّلام من أتباعه ، وهو ابن مريم البتول الطّاهرة العفيفة الّتى اصطفاها ربّها جلّ وعلا على نساء عالمى زمانها وليس كما يزعم اليهود الّذين يقولون عليها بهتاناً عظيماً . وعيسى ابن مريم عليه السّلام سيكون ذا وجاهةٍ عند الله تعالى فى الدّنيا ومكانة « بما يوحيه الله إليه من الشّريعة وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك ممّا منحه الله به ، وفى الدّار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوةً بإخوانه من أولى العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين »[1] وهو ممّن يقرّبه الله يوم القيامة فيسكنه فى جواره ويدنيه منه[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٤ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٨٧ .

﴿٤٦﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ

بشّرت الملائكة مريم البتول بأنّ ابنها عيسى ابن مريم سيكلّم النّاس فى المهد ، وهو ضجع الصّبيّ فى رضاعه[1] دليلاً على قدرة الله تعالى المطلقة ، وتبرئةً لوالدته ممّا همها به المفترون وقذفوها به ، وحجّةً له على نبوّته . ويلاحظ أنّ لفظة النّاس هي الّتى ي ء فى الآية الكريمة ، فكلام عيسى عليه السّلام فى المهد يصحّ أن يتّجه إلى كلّ واحد . أنّه سيكلّم النّاس فى مرحلة الكهولة ، فوق الغلومة ودون الشيخوخة[2] والمعروف عيسى عليه السّلام عاش ثلاثاً وثلاثين سنة[3] وفي مرحلة الكهولة هذه هو سيكلّم اس بما أوحى الله تعالى إليه من أمر الدّين . وعيسى عليه السّلام ، فوق هذا وذاك ، كما رّر الآية الكريمة ، هو من الصّالحين . ومعروف أنّ صفة الصّلاح مشتركةٌ بين كلّ باد الرّحمن الّذين يمثل النّبيّون والمرسلون قمتهم ، إقبالاً على الله تعالى وتقوى. معروفٌ أنّ عيسى عليه السّلام أحد أولى العزم من الرُّسل .

---

(1) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٨٧ .
(2) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٨٧ .
(3) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٩٢ .

﴿٤٧﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ

وإنّ البتول الطّاهرة العفيفة الّتى بلغت مبلغ النّساء والّتى تبشّرها الملائكة بولدٍ والّتى تعرف الطّريق الوحيد الّذى ينجب عن طريقه النّساء وهو الاتّصال بالرّجال ، يجيء على لسانها القول : « ربّ أنىّ يكون لى ولدٌ ولم يمسسنى بشر » ويلاحظ أنّ لفظ الرّبّ هو الّذى يجيء على لسان البتول ، والمعروف أنّ الرّبّ إنّما يرتبط فى القرآن الكريم بمواقف الخصوص وبمواقف استشعار النّعم وتربية الله تعالى عباده بها ، بينما يرتبط لفظ الجلالة « الله » بمواقف العموم . وها هي ذى مريم البتول الممتلئة بشعور الامتنان لنعم الله تعالى عليها ، المفتقرة للمزيد منها ، وبخاصّة فى هذا الموقف وما يترتّب عليه من مواقف ، يجيء على لسانها لفظ الرّب الحبيب فتناديه جلّ وعلا من أعماقها « ربّ » والمعنى « يارب » .

ويجيء على لسان البتول لفظ « أنىّ » الّذى يستفهم به عن الوجه الّذى يكون عن طريقه الولد ، والّذى يشتمّ منه ، فى ضوء واقع البتول الّتى لم يمسسها بشر مطلقاً ، بُعْدُ مجيء الولد منها إن لم تشأ العناية الإلهيّة ذلك . وكان ردّ الملك على سؤال البتول مبيّنا المعجزة الّتى سيكون عن طريقها عيسى ابن مريم « قال كذلكِ الله يخلق ما يشاء » « يعنى هكذا يخلق الله منك ولداً لك من غير أن يمسّك بشر فيجعله آيةً للنّاس وعبرة »[1] ويلاحظ أنّه يجيء فى حقّ عيسى عليه السّلام هنا جملة « يخلق ما يشاء » بينما يجيء في حقّ يحيى عليه السّلام من قبل « يفعل ما يشاء » .

إنّه يتصل بيحيى عليه السّلام تهيئة الأب الّذى بلغ من الكبر عتيّا والأمّ العاقر للإنجاب . فثمّة تهيئة موجود . أمّا فيما يتّصل بعيسى عليه السّلام فالأمر يختلف . إنّه عليه السّلام مرّ بإرادة الله ، بعمليّة خلقٍ وإيجادٍ من عدم من جهة الأب . وهذا المعنى

---

(١) تفسير الطبري ٣ / ١٨٨ .

عمّقته الآية الكريمة التّالية من سورة آل عمران[1] : « إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثمّ قال له كن فيكون » .

إنّ عمليّة خلق عيسى عليه السّلام من غير أب ، وهي الآية العظيمة والمعجزة الباهرة لنا نحن البشر ، ليست أكثر من أمرٍ واحد من الأمور الكثيرة الّتى إذا قضى الله تعالى أمراً واحداً منها فإنمّا يقول الله تعالى له كن فيكون . وإنّ أمر الله تعالى بالكاف والنّون « كن » من قبيل تقريب المعانى لنا نحن البشر المقهورى الإرادة المحدودى القدرة ، باللّغة العاجزة بطبعها عن نقل الكثير من المعانى ، فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شيءٍ الّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

---

(١) الآيـة : ٥٩ .

﴿٤٨﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ

الكتاب الكتابة[١] والخطّ الّذى يخطّه بيده[٢] .

الحكمة : السّنّة الّتي نوحيها إليه فى غير كتاب[٣] .

من تمام البشارة بعيسى عليه السّلام أنّ الله سبحانه وتعالى سيعلّمه الخطّ الّذى يخطّه بيده ، وذلك معناه ضمناً القدرة على القراءة . وقد كان عليه الصّلاة والسّلام قارئاً كاتباً ، وسيؤتيه الحكمة وهي القول الصّائب وفصل الخطاب ممّا يوحيه الله تعالى إليه فى غير الكتاب ، وسيعلّمه التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام ، والإنجيل الّذى سينزله الله تعالى عليه . وإنّما يكون تبيين معنى الإنجيل بعد الإيحاء به .

ما أعظم فضل الله تعالى على هذا الرّسول الكريم وعلى أمّه البتول .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٤ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٨٩ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٨٩ .

﴿٤٩﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ

ورسولاً إلى بنى إسرائيل : ونجعله رسولاً إلى بنى إسرائيل فترك ذكر ونجعله لدلالة الكلام عليه كما قال الشّاعر :

ورأيت زوجك فى الوغى متقلّداً سيفاً ورمحا[1]

والمعنى : وحاملاً رمحاً .

ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنّى قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم : تأويل الكلام : ورسولاً إلى بنى إسرائيل بأنّى قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم بأن أخلق لكم من الطّين كهيئة الطّير[2] .

الطير : جمع طائر[3] .

فأنفخ فيه : فأنفخ فى الطّير[4] .

الأكمه : الّذى ولد وهو أعمى مضموم العينين[5] .

تواصل الآية الكريمة تمام البشارة بعيسى عليه السّلام وتعدّد معجزاته ، فتبيّن أنّ ربّ العزّة سيجعله رسولاً مبعوثاً إلى بنى إسرائيل . ويتحوّل السّياق إلى الحديث على

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٩٠ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٩٠ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٩٠ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٩١ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٩١ .

لسان عيسى عليه السّلام الّذى قد بعث فعلاً ، وها هو ذا عليه السّلام يخاطب قومه من بنى إسرائيل أنىّ قد جئتكم فعلاً ، والمعروف أنّ جملة جاء تستعمل فى القرآن الكريم دليلاً على القُرب ، قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم جلّ وعلا وعلامةٍ على صحّة نبوّتى وصدق رسالتى أنىّ أخلق لكم وأصوّر من الطّين كهيئة الطّير وشكله فأنفخ فيه وأقول : كن بإذن الله تعالى طائراً ، فيكون طيراً بإذن الله . وأبرىء الأكمه الّذى ولد أعمى مضموم العينين من عماه ، وأبرىء الأبرص ، المريض بالبرص وهو مرض يُحْدث فى الجسم كلّه قشراً أبيض ويسببّ للمريض حكاًّ مؤلماً ، وأحيى الموتى بدعائي الله سبحانه وتعالى أن يحييه فيستجيب لى . يحدث كلُّ ذلك بإذن الله تعالى دليلاً على صحّة نبوّتى ومعجزةً لى فى العهد الّذى تقدّم فيه الطّب ومهر الأطبّاء . وهم جميعاً عاجزون عن القيام بأيّ من معجزاتى الّتى أقوم بها بإذن الله تعالى . ومن معجزاتى كذلك أنيّ أنبّئكم بما أكلتم من قبل وبما تدّخرون مستقبلاً من طعام وأشياء في بيوتكم . إنّ فى كلّ ذلك لآيةً لكم على صحّة نبوّتى إن كنتم مؤمنين بالله تعالى حقاً .

﴿٥٠﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ

تبيّن الآية الكريمة ما قال عيسى عليه السّلام لبنى إسرائيل عطفاً على ما سبق .

والمعنى : وجئتكم مصدّقاً لما بين يديّ من التّوراة الّتى أنزلها الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السّلام قبلى ، والمعروف أنّ عيسى عليه السّلام كان على شريعة موسى ﷺ [1] ولأحلّ لكم بعض الّذى حُرّم عليكم عن قتادة : « كان الّذى جاء به عيسى ألين ممّا جاء به موسى وكان قد حرّم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثّروب وأشياء من الطّير والحيتان » [2] والثُّروب جمع الثَّرْب وهو شحمٌ رقيق يغشى الكَرِش والأمعاء [3] والمراد بأشياء من الطّير ممّا لاصيصية له [4] أي لا مخلب له ولا شوكة .

وكرّر القول : وجئتكم بآيةٍ من ربّكم من أجل أمرهم أن يتّقوه جلّ وعلا ويطيعوه فيما جاءهم به عليه الصّلاة والسلّام من ربّه ومن أجل التّأكيد .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٩٥ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٩٦ .

(٣) اللّسان « ثرب » .

(٤) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٩٦ .

﴿٥١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ

يبيّن عيسى عليه السّلام لأتباعه أنّ الله سبحانه وتعالى ربّه وربّهم ، فهم جميعاً سواء فى العبوديّة له جلّ وعلا والخضوع والتّذلّل والاستكانة إليه تعالى . إنّه عليه الصّلاة والسّلام عبد الله ورسوله . وإنّ المستحّق للعبادة هو الله تعالى وحده لاشريك له ، هذا هو الصّراط المستقيم والطّريق الّذى لاعوج فيه .

﴿٥٢﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

أحسَّ : وجد[١] وعلم[٢] واستشعر[٣] والإحساس هو الوجود . ومنه قوله الله عزّ وجلّ : هل تحسّ منهم من أحد[٤] .

والأنصار جمع نصير كما الأشراف جمع شريف والأشهاد جمع شهيد[٥] .

الحواريّون : اختلف أهل التّأويل فى السّبب الّذى سمّوا من أجله حواريّين ، فقال بعضهم : سمّوا بذلك لبياض ثيابهم ، وقيل سموّا بذلك لأنّهم كانوا قصّارين يبيّضون الثّياب ، أو غسّالين يحوّرون الثّياب يغسلونها . وقيل : هم خاصّة الأنبياء وصفوتهم[٦] ويعلّق الطّبريّ[٧] : « وأشبه الأقوال الّتى ذكرناها فى معنى الحَواريّين قول من قال : سمّوا بذلك لبياض ثيابهم ولأنهّم كانوا غسّالين وذلك أنّ الحَوَر عند العرب شدّة البياض ، ولذلك سمّي الحُوَّارَى من الطّعام حُوّارى لشدّة بياضه . ومنه قيل للرّجل الشّديد بياض مقلة العينين أحْور وللمرأة حَوْراء . وقد يجوز أن يكون حَواريو عيسى كانوا سمّوا بالّذى ذكرنا من تبييضهم الثّياب وأنهّم كانوا قصّارين فعرفوا بصحبة عيسى واختياره إيّاهم لنفسه أصحاباً وأنصاراً ، فجرى ذلك الاسم لهم واستعمل حتّى صار كلّ خاصّةٍ للرّجل من أصحابه وأنصاره حَواريَّة ، ولذلك قال النّبيّ ﷺ : إنّ لكلّ نبيّ حَواريّ ، وحَواريَّ الزّبير ، يعنى خاصّته . وقد تسمّى العرب النّساء اللّواتى مساكنهنّ القرى والأمصار حَواريّات . وانمّا سميّن بذلك لغلبة البياض عليهن » .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٩٧ .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٥ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٩٧ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٠٠ .
(٦) انظر تفسير الطّبري ٣ / ٢٠٠ .
(٧) تفسير الطبرى ٣ / ٢٠٠ وقد استشرنا فى الضّبط القاموس المحيط « حور » .

ويفهم من قول الطّبريّ أنّ لفظ الحواريّ يصحّ أن يكون قد أطلق أساساً مراعاةً لحور الثّياب أي بياضها ، ثمّ أصبحت اللّفظة تستعمل فى معنى النّصير . وهذا رأيٌ وجيه .

حينما أحسّ عيسى عليه السّلام من قومه كفر نعم الله تعالى وعلم تكذيبهم له ، ووجد صدّهم الآخرين عن سبيل الله تعالى قال عليه الصّلاة والسّلام : من أنصارى إلى الله تعالى لإعلاء دينه ورفع كلمته ، قال الحواريّون نحن أنصار الله تعالى آمنّا بالله عزّ وجلّ وحده لاشريك له فلا نعبد سواه واشهد يا عيسى بأنّا مسلمون لله ربّ العالمين خاضعون لعزّته مستسلمون لمشيئته جلّ وعلا . وإعلان الحواريّين فى الآية الكريمة بأنّهم مسلمون يتمشّى مع ما جاء فى هذه السّورة الكريمة قبل[1] : « إنّ الدّين عند الله الإسلام » .

---

(١) الآيـة : ١٩ .

﴿٥٣﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ
فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ

يتجّه حواريّو عيسى عليه السّلام فى هذه الآية الكريمة إلى الله تعالى قائلين : ربّنا منّا بما أنزلت من كتابٍ سماويّ ، ومنها الإنجيل الّذى أنزلت على عيسى عليه السّلام ، واتّبعنا الرّسول عيسى عليه السّلام وصدّقنا به ودعونا بدعوته فاكتبنا اللّهمّ مع الشّاهدين الّذين شهدوا بالحقّ وآمنوا بك واتبعوا رسولك وائتمروا بأمرك ونهيك . عن ابن عبّاس رضي الله عنهما فى قوله : فاكتبنا مع الشّاهدين . قال : مع أمّة محمّد ﷺ . وهذا إسنادٌ جيّد [1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٥ .

﴿٥٤﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ

لقد مكر كفّار بنى إسرائيل بعيسى عليه السّلام فأرادوا قتله ، فألقى الله سبحانه وتعالى شَكْلَ عيسى وشَبَهَه على أحد رجال عيسى فقتلوه ظنّاً منهم أنّه عيسى عليه السّلام وأنقذ الله تعالى رسوله ورفعه إليه .

إنّ الآية الكريمة تعبّر عمّا فعله كفّار بنى إسرائيل بكونه مكراً ، ولمّا كان إحباط الله تعالى مكرهم وردّ كيدهم فى نحورهم يعتبره أولئك الكافرون مكرًا بهم لأنّ نفوسهم الخبيثة تفسّر كلّ ما قضى على خبثها مكراً بها ، فقد جاء فى الآية الكريمة من باب المشاكلة ومراعاة النّظير لفظ المكر فى القول « ومكر الله » ولمّا كان الخير كلّ الخير فى حقيقة هذا المكر وجوهره ، لأنّ كلّ ما قضى على الأذى والفساد هو خيرٌ فى الحقيقة ، لذا ذيّلت الآية الكريمة بالقول : « والله خير الماكرين » .

﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ
وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

متوفّيك : قال الأكثرون : المراد بالوفاة ههنا النّوم كما قال تعالى : وهو الّذى يتوفّاكم باللّيل . الآية . وقال تعالى : الله يتوفّى الأنفس حين موتها والّتى لم تمت فى منامها . الآية . وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النّوم : الحمد لله الّذى أحيانا بعد ما أماتنا . الحديث [1] وعليه يكون المعنى : إنّى منيمك ورافعك فى نومك [2] .

روى الشّيخان ، البخارى ومسلم ، حديث أنّ عيسى عليه السّلام ينزل قرب السّاعة ، ويحكم بشريعة نبيّنا ، ويقتل الدّجّال والخنزير ويكسر الصّليب ، ويضع الجزية [3] ولا يقبل إلاّ الإسلام [4] وفى حديث مسلم أنّه يمكث سبع سنين وفى حديث عند أبى داود الطيالسى أربعين سنة ويتوفّى ويصلّى عليه . فيحتمل أنّ المراد مجموع لبثه فى الأرض قبل الرّفع وبعده [5] .

يبدو العلاقة الوثيقة بين نهاية الآية الكريمة السّابقة وبداية هذه . والمعنى : والله خير الماكرين، إذ قال الله يا عيسى إنّى متوفّيك الآية . فالله سبحانه وتعالى يقول لعيسى عليه السّلام فى ذلك الظّرف العصيب الّذى مرّ به حينما أراد كفّار بنى إسرائيل قتله وصلبه إنّى متوفّيك وفاة نومٍ ورافعك فى نومك إلىّ ومنظّفك ومنقّيك من أقذار الّذين كفروا والّذين يريدون قتلك ومن رجسهم وقد كذّبوك وصدّوا عن سبيل الله تعالى ، وجاعل

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٦ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٠٢ .
(٣) الجلالين وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٠٤ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٦ .
(٥) الجلالين .

الّذين اتّبعوك على دين الإسلام الّذى بعث الله به رسله سواءٌ أكانوا نصارى قبل بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ، أم كانوا مسلمين متّبعين الرّسول النبيّ الأمّيّ ﷺ الّذى أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم المهيمن على الكتب السّماويّة السّابقة والّذى أرسله الله تعالى بدين الإسلام النّاسخ للدّيانات قبله ، وجاعل الّذين اتّبعوك فوق الّذين كفروا من بنى إسرائيل إلى يوم القيامة ، الّذى يرجع فيه الخلائق إلى الله تعالى فيحكم بينهم فيما كانوا يختلفون فيه فى الحياة الدّنيا فى أمر الدّين . وبما أنّ النّاس فريقان مؤمنون وكافرون فإن السّياق بعد ذلك يتعرّض لهذين الفرقين مقدّماً الحديث عن الّذين كفروا الّذين يتحدّث عنهم السّياق من زاوية بطشهم آنذاك بالمؤمنين .

﴿ ٥٦ ﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ

تتحدّث أولى آيتي الجزاء عن الكافرين والعذاب الأليم الّذى أعدّه الله تعالى لهم فى الدّنيا والآخرة . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة يجيء فيها ضمير المتكلّم فى القول « فأعذّبه » ممّا يُفْهَمُ منه شدّة العذاب . أمّا عذاب الدّنيا فالقتل والأسر والسّبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدى عن الممالك وضرب الجزية وما إلى ذلك . وأمّا عذاب الآخرة ففى جهنّم وبئس المهاد . وليس لهم من ناصرين يحولون بينهم وبين عذاب الله تعالى . وصفة الكفر تشمل الّذين جحدوا نبوّة عيسى عليه السّلام من اليهود والّذين غالوا فيه من النصّارى .

وتتحدّث الآية الكريمة الثّانية عن المؤمنين والثّواب الجزيل الّذى أعدّه الله تعالى لهم فى الجنّة الّتى فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وإذا كان بين الآيتين الصيّغتين الكريمتين « الّذين كفروا » « الّذين آمنوا » فإنّ فى القول « فيوفّيهم أجورهم » تشابهاً فى استعمال ضمير الغائب وذلك فى القول « والله لايحبّ الظّالمين » وبما أنّ هذا القول « فيوفّيهم أجورهم » يقابل من الآية الكريمة السّابقة القول « فأعذّبهم عذاباً شديداً » فإنّ الضّمير الغائب يقوم بسبب هذا التّقابل بدور ضمير المتكلّم ويضيف إلى ذلك الموافقة للقول « لايحبّ » .

وهذا القول « والله لايحبّ الظّالمين » فيه تنبيه إلى ظلم الّذين كفروا أنفسهم وغيرهم ، وفيه تنبيه إلى الموازين القسط الموضوعة يوم القيامة للحساب .

والمعروف أنّ سورة النّساء قد تحدّثت عن عيسى عليه السّلام وقومه . قال عزّ من قائل[1] : « فبما نقضهم ميثاقهم وكُفْرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حقّ وقولهم

---

(١) سورة النّساء : ١٥٥ - ١٥٩ .

قلوبنا غُلْف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم . وإنّ الّذين اختلفوا فيه لفى شكٍّ منه . مالهم به من علم إلاّ اتبّاع الظّنّ وما قتلوه بقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » والضّمير فى قوله : قبل موته عائدٌ على عيسى عليه السّلام . أي وإن مِنْ أهل الكتاب إلاّ ليؤمننّ بعيسى وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٦ .

﴿٥٨﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ بأنّ ذلك الّذى قصّه جلّ وعلا من أنباء عيسى السّلام هو من الآيات البيّنات والحجج الواضحات الدّالّة على صدقه ﷺ لأنّها من الغيب ، ومن الذّكر الحكيم والقرآن المجيد الّذى تتمثّل فيه قمّة الحكمة ، المعجز ، الّذى يرضى كلّ عقل ، وبمبناه الّذى يشبع كلّ نفس .

﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ
ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ شَبَهَ عيسى العجيب وحاله الغريب فى خلق الله تعالى له من غير أب كشبه آدم عليه السّلام وحاله فى خلق الله تعالى له من غير أبٍ ولا أمّ . بل إنّ حال آدم هو الأغرب ، ومن ثمّ فنحن بصدد تشبيه الغريب بالأغرب . وحينما لايصحّ الزّعم بكون آدم عليه السّلام ابناً لله تعالى فمن باب الأَوْلى والأحرى ألاّ يصحّ الزّعم فى عيسى عليه السّلام الّذى يقلّ حاله غرابةً عن حال آدم « فإنّها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصّدور »[1] لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يخلق آدم من غير أبٍ ولا أم ، وأن يخلق حوّاء من ذكرٍ بلا أنثى ، وأن يخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وأن يخلق سائر المخلوقات من ذكرٍ وأنثى . إنّ الله سبحانه وتعالى خلق آدم من ترابٍ ثم قال له : كن فكان . وإنّ عيسى عليه السّلام كان بكلمة الله تعالى : كن فكان .

وتقرّر الآية الكريمة الثّانية أنّ ما قصّه الله تعالى على المصطفى ﷺ فى شأن عيسى عليه السّلام هو الحقّ من ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم فلا مرية فى ذلك القصص ولا شكّ . وتنهى الآية الكريمة المصطفى ﷺ عن أن يكون أحد الشّاكّين الممترين . وإنّ أمّة المصطفى ﷺ تبعٌ له فى ذلك .

---

(١) سورة الحجّ : ٤٦ .

﴿٦١﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ

فمن حاجّك فيه : فمن جادلك يا محمّد فى المسيح عيسى ابن مريم[1] .

ثُمَّ نبتهل : ثمّ نلتعن . يقال فى الكلام : ما له بهله الله أي لعنه الله وما له عليه بهلة أي لعنة الله يريد اللّعن . وقال لبيد وذكر قوماً هلكوا فقال :

نظر الدّهر إليهم فابتهل

يعنى دعا عليهم بالهلاك[2] ويفهم من الابتهال وراء ذلك التّضرّع فى الدّعاء[3] .

لقد بيّن ربّ العزّة فى هذا الكتاب العزيز الموحى به للمصطفى ﷺ العلم الصّحيح فى عيسى ابن مريم عليه السّلام ، ذلك العلم الذّى وصل فعلاً إلى النّبيّ ﷺ وإلى أمّته ، لأنّ « جاء » تدلّ دائماً على الوصول وعلى القرب . فإذا حاجّ وفد نصارى نجران المصطفى ﷺ وجادلوه بعد ذلك فى عيسى عليه السّلام وأصرّوا على أنّه ابن الله – كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً – فالمطلوب من المصطفى ﷺ أن يقول لهم تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نتضرّع إلى الله تعالى ونخلص له الدّعاء فنجعل لعنة الله تعالى والطّرد من رحمته على الكاذبين منّا أو منكم .

وإنّ وفد نجران حينما أصرّوا على زعمهم دعاهم ﷺ إلى المباهلة فنكصوا على أعقابهم . وقد خرج ﷺ « ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعليّ وقال لهم : إذا دعوت فأمّنوا فأبوا أن يلاعنوا وصالحوه على الجزية »[4] عن ابن عبّاس ... ولو خرج

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٠٩ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٠٩ .
(٣) الجلالين .
(٤) الجلالين وانظر تفسير الطّبريّ ٣ / ٢١١ ، ٢١٢ .

الّذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لايجدون مالاً ولا أهلاً[1] وقال البخاريّ فى الحديث الّذى رواه عن « حذيفة رضي الله عنه قال : جاء العاقب والسّيّد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه . قال : فقال أحدهما لصاحبه : لاتفعل فوالله لئن كان نبيّاً فلا عنّاه لانُفْلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قال : إنّا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلاّ أمّيّاً فقال : لأبعثن معكم رجلاً أميناً حقّ أمين . فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجرّاح . فلمّا قام قال رسول الله ﷺ : هذا أمين هذه الأمّة . رواه البخاري ومسلم والتّرمذيّ والنّسائي وابن ماجة »[2] .

وكان وفودهم سنة تسع وأهل نجران أوّل من أدّى الجزية إلى رسول الله ﷺ[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٩ من حديث رواه الإمام أحمد والبخاريّ والترمذىّ والنّسائي .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٩ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣٧٠ .

﴿٦٢﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

تبيّن الآية الكريمة أنّ ما قصّه الله تعالى فى شأن عيسى عليه السّلام من كونه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم هو القصص الحقّ الّذى لامرية فيه ولا شكّ ، كما تبيّن أنّه ما من إلهٍ معبودٍ بحقّ إلاّ الله تعالى وحده لاشريك الله . إنّ الله تعالى هو العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه لايفوته شيءٌ ولا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسْألون .

﴿٦٣﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ

إنْ تولّى وفد نصارى نجران وغيرهم عن الحقّ وأعرضوا عنه وصدّوا غيرهم فإنّ الله سبحانه وتعالى عليم بالمفسدين الّذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ابتداءً بالإشراك مع الله تعالى غيره والزّعم بأنّ لله سبحانه وتعالى ولداً وصاحبة .

أهل الكتاب وبعض مظاهر مكرهم

(الآيات ٦٤-٧٤)

﴿٦٤﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

سواء : مصدر بمعنى عدل ونِصْف[1] .

تخاطب الآية الكريمة أهل الكتاب من اليهود والنّصارى أن تعالَوْا وهلمّوا إلى كلمةٍ عدلٍ ونِصْف ومستوٍ أمرها بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله وحده لاشريك له وألاّ نشرك به جلّ وعلا أحداً غيره ، وألاّ يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فلا يطيع بعضنا بعضاً فى معصية الله تعالى بتحليل ما حرّم الله تعالى أو تحريم ما أحلّ الله تعالى ، على نحو ما يفعل بعض رجال الدّين من القوم .

فإن تولّى أهل الكتاب عن هذه الكلمة السّواء وأعرضوا عن هذا العرض البديع العادل فقولوا لهم أيّها المؤمنون يامن تؤمنون بالله تعالى ربّاً ، وبمحمّد ﷺ رسولاً ، وبالقرآن الكريم منهجاً ودستوراً ، اشهدوا بأنّا مسلمون لله ربّ العالمين ، مستسلمون لمشيئته جلّ وعلا ، موحّدون له ، مخلصون له العبادة وحده لاشريك له .

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٣ / ٢١٤ .

﴿٦٥﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ

سبب النّزول

عن ابن عبّاس قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلاّ يهوديّاً ، وقالت النصّارى : ما كان إبراهيم إلاّ نصرانياً ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم : يا أهل الكتاب لم تحاجّون فى إبراهيم وما أنزلت التّوراة والإنجيل إلاّ من بعده أفلا تعقلون[1] .

تخاطب الآية الكريمة أهل الكتاب من اليهود والنّصارى الّذين جادلوا وخاصموا فى إبراهيم الخليل عليه السّلام وزعم اليهود أنّه كان يهوديّاً وزعم النّصارى أنّه كان نصرانياً ، وتنكر عليهم فى هيئة الاستفهام أن يحاجّوا فى إبراهيم عليه السّلام بينما التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى ووجدت اليهوديّة بعدها والإنجيل الّذى أنزله الله تعالى على عيسى ووجدت النّصرانيّة بعده ، إنّما أنزلهما الله تعالى بعد إبراهيم عليه السّلام . هلاّ عقل اليهود والنّصارى ما يقولون فانتفعوا بنعمة العقل عليهم !

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢١٦ .

﴿٦٦﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ
فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

هـا : للتّنبيه [1] .

هؤلاء : يا هؤلاء [2] .

تخاطب الآية الكريمة أهل الكتاب من اليهود والنّصارى بأنّهم جادلوا فيما لهم به علمٌ ممّا اعتقدوا صحّته من أمور دينهم معتمدين على ما أوحى الله تعالى به إلى موسى وعيسى عليهما السّلام وما انتهى إليهم من تعاليم الدّين ، ولكن لِمَ يجادلون فيما ليس لهم به علمٌ أبداً من شئون إبراهيم عليه السّلام . إنّ الآية الكريمة لتنكر عليهم هذا السّلوك أشدّ الإنكار ، وترشدهم إلى الطّريق القويم بأن يصدّقوا بما أوحى الله تعالى ، عالم الغيب والشّهادة ، إلى محمّد ﷺ من آياتٍ بيّنات فى شأن إبراهيم الخليل عليه السّلام . إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم وهم لايعلمون . « سبحانك لاعلم لنا إلاّ ما علمتنا إنّك أنت العليم الحكيم » [3] .

---

(١) الجلالين .

(٢) الجلالين .

(٣) سورة البقرة : ٣٢ .

﴿٦٧﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

تبيّن الآية الكريمة وجه الحقّ فى إبراهيم عليه السّلام . إنّه ما كان يهوديّاً ولا نصرانيّاً ولكن كان حنيفاً مائلاً عن الأديان كلّها إلى الدّين القيّم ، مسلماً موحِّداً لله تعالى طائعاً له جلّ وعلا مذعنا ، وما كان من المشركين .

﴿٦٨﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ

تبيّن الآية الكريمة أنّ أحقّ النّاس بولاية إبراهيم الخليل عليه السّلام ونُصْرته هم الذين اتّبعوه وكانوا على ملّته فعبدوا الله تعالى وحده لاشريك له وائتمروا بأمره . « وهذا النّبيّ والّذين آمنوا » والمعنى أنّ أحقّ النّاس بإبراهيم عليه السّلام كذلك هذا النّبيّ محمّد ﷺ الّذى وافق شرعه الكثير من شرع أبينا إبراهيم عليه السّلام . ويلاحظ حسن استعمال اسم الإشارة الدّالّ على القرب « هذا » رفيع منزلته ﷺ عند بارئه وقربه منه جلّ وعلا . والمراد بالّذين آمنوا ، الّذين آمنوا بمحمّد ﷺ واتّبعوا ما أوحى الله تعالى إليه من قرآنٍ مجيد ، وسنّة مطهرّة مبيّنةٍ لهذا الكتاب العزيز .

وتقرّر الآية الكريمة فى تذييلها « والله وليّ المؤمنين » أنّ الله سبحانه وتعالى وليّ المؤمنين ومؤيّدهم بنصره . ولمّا كانت صفة الإيمان قد خلعتها الآية الكريمة على أتباع محمّد ﷺ « وهذا النّبيّ والّذين آمنوا » فذلك معناه أنّ حظّ المؤمنين من أتباعه ﷺ وفور من ولاية الله تعالى ونصره وتأييده .

﴿٦٩﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۖ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

سبب النزول

نزلت الآية الكريمة لمّا دعا اليهود معاذاً وحذيفة وعمّاراً إلى دينهم[1] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ طائفةً من اليهود تمنّت أن تضلّكم وتصدّكم عن الطّريق القويم وتردّكم إلى ضلالكم القديم أو إلى دينهم . وجهل أولئك أنّهم إنمّا يضلّون أنفسهم بهذه المحاولات لأنّها محاولاتٌ فاشلة من ناحية ، ولأنّ إثم محاولاتهم وضلالهم عائدٌ إليهم ولاصقٌ بهم من ناحية أخرى . والعجيب فى الأمر أنّهم لايشعرون بشيءٍ من ذلك فهم بمنزلة من فقد أبسط أنواع الإحساس والشّعور .

وإذا كانت مناسبة الآية الكريمة خاصّةً أساساً فإنّها عامّةٌ وراء ذلك فتلك الطّائفة من اليهود والنّصارى موجودةٌ فى كلّ زمان .

---

(١) الجلالين .

﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ

تخاطب الآية الكريمة أهل الكتاب فى طريقةٍ تذكّرهم بنعمةٍ من أكبر نعم الله تعالى ليهم ألا وهي إنزال كتابٍ سماويّ على كلّ من رسولي الله تعالى إليهم ، موسى وعيسى ليهما السّلام ، وتسألهم فى طريقة موبّخةٍ لهم ومؤنّبة : لِمَ تكفرون بآيات الله تعالى تجحدونها وهي الّتى تجدونها مكتوبةً عندكم فى التّوراة والإنجيل وتذكر لكم نعت النّبيّ أمّيّ . لِمَ تكفرون بهذه الآيات وأنتم تشهدون أنّها حقٌّ من عند الله تعالى وتعلنون أنّها ق ؟ ولم تكفرون بآيات القرآن الكريم الّتى تشهدون فى أعماقكم أنّها حقّ ولكنّكم غالباً – تخالفون بأقوالكم ما تعتقدون ؟

﴿٧١﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ

تسير الآية الكريمة على غرار سابقتها فهي تستفهم فى إنكار وتسأل أهل الكتاب فى أسلوب تقريعيّ : لم تلبسون الحقّ بالباطل وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون . لِمَ تخلطون الحقّ الّذى أنزله الله تعالى فى هيئة التّوراة والإنجيل ، وفيه نعت النّبيّ الأمّيّ ﷺ ، بالباطل الّذى تقومون به فى هيئة التّحريف والتّزوير فى الكتابين السّماويّين . ولم تكتمون الحقّ المتمثّل فى نعت المصطفى ﷺ النّبيّ الأمّيّ الّذى تجدون اسمه فى الكتابين والّذى يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر ، لم تكتمون الحق وأنتم تعلمون أنكّم تكتمون حقّاً وتكذّبون صدقاً وتجفون عدلاً ؟

﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ
عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ

طائفة من أهل الكتاب : طائفةٌ من اليهود .

وجه النّهار : أوّل النهّار ، وسمّي أوّله وجهاً له لأنّه أحسنه وأوّل ما يواجه النّاظر فيراه منه كما يقال لأوّل الثّوب وجهه[1] .

لعلهم يرجعون : عن ابن عبّاس ، لعلّهم يرجعون ، لعلّهم ينقلبون عن دينهم[2] .

ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم : ولا تصدّقوا إلاّ من تبع دينكم فكان يهودياً[3] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ طائفةً من أهل الكتاب من يهود يثرب قال بعضهم لبعض بقصد الكيد للإسلام وأهله ولنبيّ الإسلام المصطفى ﷺ آمنوا بالّذى أنزل على الّذين آمنوا وعلى المصطفى ﷺ أوّل النّهار ، أعلنوا ذلك وصلّوا مع المسلمين صلاة الفجر نفاقاً ، فإذا جاء آخر النّهار فأعلنوا كفركم بالإسلام وجحدكم للقرآن وتكذيبكم لنبيّ الإسلام فلعلّ الذّين آمنوا يرجعون إلى دينهم ويرتدّون عن دين الإسلام بسبب ما يتسرّب إلى نفوسهم ويسبق إلى رُوعهم من اعتقادٍ بكون اليهود لم يعلنوا كفرهم آخر

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٢٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٢٢ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٢٣ .

ذات النّهار الّذى أعلنوا فى صباحه إسلامهم وهم أهل كتابٍ وأولو علم إلاّ لكونهم تبيّنوا بطلانه .

لقد نسي اليهود أنّ الله سبحانه وتعالى مبطلٌ كيدهم ، كاشفٌ أسرارهم ، مظهرٌ خبث نواياهم .

وتستمرّ الآية الكريمة الثّانية فى كشف خبث اليهود وتثبيت رسول الإسلام وأمّة الإسلام . إنّ تلك الطّائفة من اليهود يوصى بعض أفرادها بعضاً بعد الكفر بالإسلام ألاّ يؤمنوا وألاّ يصدّقوا إلاّ من تبع دينهم فكان يهودياً ، وعليه فهم لن يتّبعوا رسول الإسلام محمّداً ﷺ ، وعليه فالآية الكريمة تبيّن السّبب الحقيقيّ وراء كفرهم بالإسلام .

ويأتى فى أثناء الآية الكريمة جملة معترضة يتّضح منها فضل الله تعالى على نبيّ الإسلام وأمّة الإسلام : « قل إنّ الهدى هدى الله » فالمطلوب من المصطفى ﷺ ، وأمّته تبع له فى ذلك ، أن يقول لأولئك الكافرين ولكلّ كافر : إنّ الهدى الحقيقيّ هو هدى الله تعالى ، وقد هدانا الله سبحانه وتعالى إلى دين الإسلام الّذى أكمله لنا وأتمّ به النّعمة علينا ، ورضيه جلّ وعلا لنا .

وتواصل الآية الكريمة ذكر بقيّة الأسباب وراء كفر اليهود بالإسلام . فبعد أن نهى بعضهم بعضاً أن يصدّقوا إلاّ من تبع دينهم ، ينهى بعضهم بعضاً أن يصدّقوا بأنّه يصحّ أن يؤتى أحدٌ من فضل الله تعالى كالّذى آتاهم الله تعالى إيّاه ، من نبوّةٍ أو وحيّ ، أو أن يصدّقوا بأنّه يصحّ أن يوجد من يحاجّهم ويجادلهم عند ربّهم جلّ وعلا يوم القيامة . إنّ بعضهم يقول لبعض لاتؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحدٌ مثلما أوتيتم ولا تؤمنوا أن يحاجّكم أحدٌ عند ربّكم .

وإذا كانت الآية الكريمة قد بادرت إلى الرّدّ على اليهود فى جملة اعتراضيّة « قل إنّ الهدى هدى الله » فإنّها تواصل الرّدّ على اليهود فتأمر المصطفى ﷺ أن يقول كذلك لليهود : « إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم » ومن فضل الله تعالى

م الواسع العميم اصطفاء محمّد بن عبد الله ﷺ الأمّيّ العربيّ القرشيّ الهاشميّ بالرّسالة وبنعمة ختم النّبوّة وبالوحي فى هيئة القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة .

وتستمرّ الآية الكريمة الثّالثة فى بيان فضل الله تعالى الواسع العميم الّذى خصّ به النّبيّ الكريم وأمّة العرب . إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى لا يُسْأل عمّا يفعل يختصّ برحمته من يشاء من عباده ، ومن ذلك اختصاصه محمّداً ﷺ بنعمة النّبوّة وأمّة العرب بحمل رسالة الإسلام ابتداءً . والله سبحانه وتعالى ذو الفضل العظيم . فليس من حقّ اليهود ولا غيرهم أن يحسدوا المصطفى ﷺ على ما خصّه به من فضله العظيم ، ولا أمّة الإسلام على ما خصّها به من خيره العميم جلّ وعلا .

ذلّ الخيانة وعزّ الأمانة

(الآيات ٧٥-٩٢)

﴿٧٥﴾ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ
يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا
مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

تبيّن الآية الكريمة أنّ من أهل الكتاب ، اليهود بخاصّة ، من إن تأمنه بقنطارٍ من الذّهب وكميّةٍ كبيرة من المال ، يؤدّه إليك ولا ينقص منه شيئاً . وفى المقابل هنالك فريقٌ آخر إن تأمنه بدينارٍ واحد لا يؤدّه إليك إلاّ مادمت عليه قائماً وله ملازماً وفى مطالبتك بحقّك ملحفا . وإذا أردت أن تعرف السّبب فى خيانة القوم للأمانة تبيّنت عجباً ، ذلك بأنّهم يقولون ليس علينا فى أكل أموال العرب الأمّيّين بالباطل سبيل ، ولا ذنب علينا فى ذلك فقد أحلّ الله لنا ذلك ، ولا لوم ولا تثريب . إنّهم يقولون ما يقولون تسويغاً لأكل أموال المسلمين بالباطل وهم يعلمون أنّهم يكذبون على الله تعالى فى كلّ ما يقولون . فعلى المسلمين أن يحذروهم .

ويلاحظ أنّ مجىء لفظ الدّينار فى الآية الكريمة ، ومعروف أنّه من معدن الذّهب ، قد سوّغ للاعتقاد بكون المقصود بالقنطار فى المقام الأوّل قنطار الذّهب ، خاصّة وأنّ المقصود التّنويه بالكثرة والتنبّيه عليها .

﴿٧٦﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ

تعمق الآية الكريمة تكذيب الله تعالى الطّائفة من أهل الكتاب الّتى زعمت فى الآية الكريمة السّابقة أنّها ليس عليها ذنب ولا لوم حينما تأكل أموال العرب الأمّيّين وقد أكذبهم الله تعالى على الفور ، وها هى ذى الآية الكريمة تنفى زعمهم السّابق « ليس علينا فى الأمّيّين سبيل » بالقول : « بلى » . والمعنى عليكم فى أكل أموال النّاس بالباطل سبيل . وبعد أن بيّنت الآية الكريمة ذلّ الخيانة بيّنت عزّ الأمانة . فمن أوفى بعهده الّذى عاهد الله تعالى عليه ومِنْه أداء الأمانة ، واتّقى النّار بامتثال الأوامر واجتناب النّواهى فإنّ الله يحبّ المتقين ، يسدّد خطاهم ويأخذ بأيديهم ويمنحهم الحياة الطّيّبة فى الأولى والآخرة .

ويصحّ أن يعود الضمير من القول « بعهده » إلى الذّات العليّة ولفظ الجلالة فى القول فى الآية الكريمة السّابقة « ويقولون على الله الكذب » والمعنى أنّ من أوفى بعهد الله تعالى الّذى أخذه على عباده ومنه أداء الأمانة .

﴿٧٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

يشترون : يستبدلون (١) ويعتاضون (٢) .

لاخلاق لهم : لاحظّ لهم ولا نصيب (٣) .

لايزكّيهم : لايطهّرهم (٤) .

سبب النزول

« عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال رسول الله ﷺ : من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىءٍ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان فقال الأشعث بن قيس : فيّ والله كان ذلك . كان بينى وبين رجلٍ من اليهود أرض فجحدنى فقدمته إلى النّبيّ ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ : ألك بيّنة ؟ قلت : لا . فقال لليهودى : احلف . قلت يارسول الله : إذاً يحلف فيذهب مالى فأنزل الله عزّ وجلّ : إنّ الّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً . الآية » (٥) .

ومن الواضح العلاقة الوثيقة بين الآية الكريمة والآية السّابقة عليها فلكلّ منهما علاقة بالعهد . والآية الكريمة تبيّن أنّ الّذين يستبدلون بعهد الله تعالى والّذين يعتاضون به وبأيمانهم الكاذبة ثمناً قليلاً وعرضاً دنيويّاً زائلاً ومتاعاً رخيصاً ، وذلك بأكل أموال النّاس بالباطل ، أولئك لانصيب لهم من الخير فى الآخرة ولا حظّ لهم من نعيم الجنّة

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٢٨ والجلالين .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٧٥ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٢٨ وتفسير ابن كثير ١ / ٣٧٥ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٢٩ والجلالين .

(٥) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٢٩ وانظر الآراء الأخرى فى سبب النزول ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

المقيم ، ولا يكلّمهم الله تعالى بما يسرّهم ، ويدلّ على رضاه جلّ وعلا عنهم ، ولطفه بهم ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة بعين الرّحمة لهم ، والتعطّف عليهم ، والشّفقة بهم ، ولا يطهّرهم من دنس كفرهم وذنوبهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى . ويتوّج إبعادهم من رحمة الله تعالى بالعذاب المؤلم الموجع لهم .

ومن الواضح أنّه يدخل فى عهد الله تعالى الّذى أخذه عليهم الإيمان بخاتم الأنبياء والمرسلين ، الّذى يجدون نعته فى كتبهم ، كما يدخل فى العهد أداء الأمانة .

وإنّ الآية الكريمة التّالية ذات علاقة بالعهد الّذى لم يف القوم به والأمانة الّتى لم يؤدوها .

﴿٧٨﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

تبيّن الآية الكريمة أنّ من أهل الكتاب ، اليهود والنّصارى ، ومنهم يهود يثرب ، لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب ، ويحرّفون الكلم عن مواضعه ، ويبدّلون كلام الله تعالى ، ويزيلونه عن المراد به ، ويؤوّلونه على غير وجهه ، وينحرفون به عن معناه ، ويزيدون فيه وينقصون ، ويجتهدون فى التّلبيس على النّاس بما فى ذلك طريقة الإلقاء والتّرنّم ، يحدث كلّ ذلك منهم لتحسبوه من الكتاب الّذى أنزله الله تعالى على كلّ من موسى وعيسى عليهما السّلام وليس شيءٌ من ذلك من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله تعالى وما هو من عند الله تعالى ولكنّهم يتعمّدون قول الكذب على الله تعالى مع سبق إصرار .

﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ
وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ

البشر : جمع بنى آدم لا واحد له من لفظه مثل القوم والخلق . وقد يكون اسماً لواحد[1] .

الحكم : فصل الحكمة[2] والفهم للشّريعة[3] .

الرّبّانيّون جمع الرّبّانيّ ، وهو المنسوب إلى الرّبّان الّذى يربّ النّاس وهو الّذى يُصْلِح أمورهم ويربّها ويقوم بها يقال : رَبَّ أمرى فلان فهو يربّه ربّاً وهو رابّه . فإذا أريد به المبالغة فى مدحه قيل هو ربّان[4] والرّبّانيّون الحكماء العلماء الفقهاء الأتقياء[5] .

سبب النزول

« عن ابن عبّاس قال : قال أبو رافع القرظيّ حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنّصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام : أتُريُد يا محمّد أن نعبدك كما تعبد النّصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجلٌ من أهل نجران نصرانيّ يقال له الرّئيس : أوَذاك تريد مِنّا يا محمّد وإليه تدعونا ؟ أو كما قال . فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره . ما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى . أو كما

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٣٢ .
(٢) تفسير الطّبرى ٣ / ٢٣٢ .
(٣) الجلالين .
(٤) انظر تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٣٣ .
(٥) انظر تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٣٣ .

قال . فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك من قولهم : ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنّبوّة الآية إلى قوله : بعد إذ أنتم مسلمون »[1] .

تبيّن الآية الكريمة الأولى أنّه ما ينبغى لبشر اصطفاه الله تعالى بنعمة النّبوّة وأوحى إليه كتاباً سماويّاً وخصّه بالفقه فى دينه وفصل الخطاب ، ولا يصحّ منه وهو المجتبى المختار أن يقول بعد ذلك للنّاس اعبدونى من دون الله تعالى . إنّ هذا لا ينبغي ولا يصحّ ممّن اصطفاهم الله تعالى بالنّبوّة والرسالة أكبر نعمه على عبدٍ من عباده ، فكيف بمن يقلّون عن هؤلاء فضلاً . إنّ أولئك المصطفين إنمّا يأمرون النّاس بأن يكونوا ربّانيّين علماء حكماء فقهاء حلماء عاملين بما علّمهم الله تعالى معلّمين النّاس مرشد يهم إلى كلّ خير منشّئيهم عليه ، لأنّ الله سبحانه وتعالى اصطفى أولئك الأتباع بكونهم يعلّمون النّاس الكتاب السّماويّ الموحى به ، وبكونهم طلابّ علم فهم أبداً يدرسون ويحصّلون تماماً كما يدرّسون الآخرين ويربّون .

وتواصل الآية الكريمة الثّانية تبيين ما يقول أولئك المصطفون الأخيار للنّاس . إنّهم إذا كانوا لايدعون النّاس إلى عبادتهم ، فإنّهم كذلك لا يأمرون النّاس بأن يتّخذوا الملائكة والنّبيّين أرباباً .

وتستفهم الآية الكريمة فى إنكار « أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » هل يصحّ أن يأمر ذلك المصطفى المختار النّاس بأن يكفروا بالله تعالى وأن يشركوا مع الله تعالى سواه بعد أن دخل أولئك النّاس فى دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به كلّ رسله وبعد أن أصبح النّاس موحّدين لله ربّ العالمين !

إنّ الآيتين الكريمتين تنعيان فى المقام الأوّل على النّصارى الّذين غالوا فى عيسى ابن مريم عليه السّلام وتقوّلوا عليه .

---

(١) تفسير الطبريّ ٣ / ٢٣٢ .

﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ
قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ

وإذ أخذ الله : واذكر إذ أخذ الله[١] أو واذكروا يا معشر أهل الكتاب[٢] والميثاق توكيد العهد من قولك أو ثقت الشّيء إذا أحكمت شدّه[٣] .

لما آتيتكم : اللاّم المفتوحة الّتى مع ما فى أوّل الكلام لام الابتداء[٤] وما بمعنى الّذى اسم موصول[٥] وقد رجّح الطّبريّ « أن يكون قوله لما بمعنى لمهما وأن تكون ما حرف جزاء أدخلت عليها اللاّم وصيّر الفعل معها على فعل ثمّ أجيبت بما تجاب به الأيمان فصارت اللاّم الأولى يميناً إذ تلقّيت بجواب اليمين »[٦] .

والإصر بمعنى العهد والوصّية[٧] .

الفاسقون : الخارجون من دين الله وطاعة ربّهم[٨] .

---

(١) تفسير الجلالين .
(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٣٨ .
(٣) الفروق اللّغويّة لأبى هلال العسكريّ ٤٣ .
(٤) انظر تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٣٥ .
(٥) انظر تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٣٥ وثمّة بقيّة آراء العلماء .
(٦) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٣٥ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٣٨ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٣ / ٢٣٩ .

تخاطب الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ أو تخاطب أهل الكتاب ، والمعنى واذكر إذ أخذ الله ميثاق النبيّين ، أو واذكروا يا أهل الكتاب إذ أخذه الله تعالى من النّبيّين ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام ، لمهما آتيتكم أيّها النبيّون وأوحيت إليكم من كتابٍ سماويّ وفقهٍ فى دين الله تعالى ، ثمّ جاءكم ، وإنّ أقوامكم تبعٌ لكم فى العهد المؤكّد المأخوذ عليكم ، ثمّ جاءكم وجاء أقوامكم رسولٌ من الله تعالى مصدّقٌ لما معكم من وحيٍ سماويّ لتؤمننّ به ، ولتصدّقنّه ولتتّبعنّه ولتنصرنّه . قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً النّبيّين وقد أخذ الله تعالى عليهم الميثاق أأقررتم بذلك وأخذتم على ذلكم عهدى ووصيّتى بأن تتّبعوا الرّسول المبعوث منّى المصدّق لما معكم قالوا أقررنا ، قبلنا ورضينا . قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً النّبيّين : فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين . اشهدوا على أنفسكم بقبول عهدى ووصيّتى ، وأنا معكم من الشّاهدين عليكم وعلى أممكم الّذين أخذتم عليهم العهد المؤكّد بالإيمان بالرّسول المبعوث من الله تعالى المصدّق لما معهم وبنُصرته .

ومن البيّن أنّ العهد المؤكّد باتّباع خاتم الأنبياء والمرسلين مأخوذٌ من أهل الكتاب لأنّه عليه الصّلاة والسّلام خاتم الأنبياء والمرسلين المصدّق لما مع اليهود والنّصارى من الوحي السّماوى . فعلى كلّ من اليهود والنّصارى أن يتبعوا النّبيّ الأمّيّ الّذي يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل بنعوته المتواترة .

وتقرّر الآية الكريمة التّالية أنّ من أعرض بعد كلّ هذا البيان عن اتّباع خاتم الأنبياء والمرسلين فأولئك هم الفاسقون الخارجون من الصّراط المستقيم والنّهج القويم .

« قال عليّ بن أبى طالب وابن عمّه ابن عبّاس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبيّاً من الأنبياء إلاّ أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمّداً وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمّته لئن بعث محمّد وهم أحياء ليؤمننّ به ولينصرنّه . وقال طاوس والحسن البصريّ وقتادة : أخذ الله ميثاق النّبيّن أن يصدّق بعضهم بعضاً . وهذا لا يضادّ ما قاله عليّ وابن عبّاس ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٧٨ .